

أصالة الدرس اللغوي العربي

الدكتور : بوحساين نصر الدين

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية- قسم اللغة العربية وآدابها-

جامعة سعد دحلب- البليدة-

ينبهر متأمل الدراسات اللغوية العربية بمختلف تشعباتها وتفرعاتها إلى العمق الذي بلغته والنضج التأسيسي الذي وصلت إليه ، بحيث يعجز المرء أن يحيط بجوانبها ونتائجها وطرق الاستدلال فيها.

فإذا ما أخذنا جانباً واحداً فقط من الميادين المتباعدة التي طرق أبوابها علماء العربية كباب النحو بأفانته وجذوره الغائرة لوجدنا من اللطائف والدرر ما يحار فيه فكر الإنسان ويسكت عن وصفه كنه البيان.

فقد سبق علماء النحو من جيل سيبويه وحتى جيل أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جني نخاة الغريين الذين أغرقوا إلى وقت غير بعيد في مناهج تطبعها الذاتية والاستبطان الفلسفي، أو تناهوا في التتبع التاريخي لظواهر اللغوية أو المقارنة بين لغات ليصنفوها في أسر وفصائل وفروع حتى دخل عليهم دي سوسور بوجهة نظر جديدة (1) أخرج من خلالها الدرس اللغوي إلى الاعتبار الموضوعي المنطلق من ذات اللغة المحدد لوظائفها المميزة لها عن غيرها من الأنظمة الدلالية التي تميز الجنس البشري عن سائر المخلوقات الأخرى.

وقد ساهمت جهوده- التي يجب أن تؤخذ بالتحفظ والتحرّج العلميين 1 - في شحذ همم الباحثين ببعثهم في اتجاه قليلا ما أولوه العناية والدرس الكافيين ويتمثل في اكتشاف كنه النظام اللغوي في آنيته بعيدا عن المقابلات المقارنة أو الطروحات الفلسفية- على أهميتها في فتح التفكير اللغوي بحثا في الأصول الإستمولوجية للغة وضروب التفكير اللغوي ثم بيان أواصر التصاقب والافتراق بين اللغة كآلة للفكر والفكر في حد ذاته- التي حجّرت الدرس اللغوي في نماذج نمطية مفهومية جعلت من اللغة أقرب إلى الحدود الفلسفية ببديهياتها ومسلّماتها ومنطقها منه إلى طبيعتها وجوهرها باعتبارها بناء متكامل المستويات تحكمه مجموعة من القوانين تضبط عناصره ومستوياته فتجعلها تعمل في تناسق واحكام وفق سيرورات متألّفة الغرى تخضع لمنطق وحده.

يشكل التوجه الاستغراقي التوزيعي الأمريكي وكذا التيار المنظوماتي الدانماركي أوضح النماذج التي أرادت أن تكشف النقاب عن منطق اللغة- رغم التباينات المعروفة بين كليهما حيث ليس الغرض في مقامنا هذا الوقوف على هذا الوجوه بقدر هو وقوف على الفكر البنوي في أهم مبادئه- بالانطلاق من جملة المبادئ وستفق على وسمها بمصطلح الأصول التي لا محيد عنها بحثا عن القوانين التي تنتظم فيها الوحدات اللغوية وفقا لجملة المقابلات أو التشابهات التي تجمع أو تفرق بين بعضها والبعض الآخر انطلاقا من الميزات التي أشار "سوسور" إلى البعض منها والثنائيات التي حدّدت الكثير من تفاصيلها في محاضراته وبنى عليها الكثير من استنتاجاته واعتمدها الكثير من تلامذته بناء لثنائيات جديدة أو بحثا فيها لتفريعاتها وفقا لخصوصيات اللسان باعتباره أداة للتبليغ والتواصل بالدرجة الأولى.

سنقتصر في هذا الشق من البحث على مبدئين أصليين أساسيين في التفكير البنوي وهما مفهوم المدونة ثم مفهوم القياس لنرى هل اعتمد نخاة العربية الأوائل هذين المبدئين وإلى أي حد طبقوها وصولا إلى جملة الحقائق العلمية التي استنبطوها.

تعرف المدونة اللغوية كما أرادها شالز فريز أو بلومفيلد (1) بأنها مجموع السلاسل الصوتية التي يستعملها المتكلمون الأصليون في تخاطبهم لأداء أغراضهم الاجتماعية المختلفة (2) أو إنّما مجموع ما يستعمله المتكلمون الأصليون أداء لوظائف اللسان المختلفة.

(1) نجد في بعض الدراسات الأروبية المعاصرة جدا ما يثبت أنّ دي سوسور لم يخرج في محاضراته عن الفكر التقليدي للمدرسة التاريخية حيث تلامذته حملة مقولته بأن يتروها عن أصولها وفروعها التاريخية، وقد اعتمد هؤلاء في تحرياتهم على الجمع الدقيق لجميع محاضرات سوسور المنشور منها وغير المنشور وأتوا على وجه الخصوص (العرب يحكم بنائي الظاهرية وفلسفة اللغة).

(1) Bloon fielxl : language , oxford university press

(2) German introduction à la

يستفاد من هذين التعريفين أنَّ المدونة هي ما يمكن تسجيله من المستوى المنطوق من اللغة يستعمله متكلموها الأصليون بمعنى المتكلمون الفصحاء بالسليقة.

فإذا ما علمنا أنَّ مفهوم الفصاحة هو الاستعمال العفوي للسان معين - أي على مستوى التأدية - وفقا للنواميس الضابطة لذلك اللسان سواء أتعلم الأمر بالمستوى الفونولوجي أم الإفرادي بشقيه الصرفي المرفولوجي أو المفرداتي (ما يتعلق بمثن اللغة) أم التركيبي النحوي أم التألفي النظمي أدركنا بشكل جلي دقة التحريات التي اعتمدها علماء اللغة العربية عند جمعهم للغة فتدوينها ثم درسها، كان موجههم الوحيد دراسة اللغة لذاتها وغاية فيها هي كعنصر جدير بالدراسة بحكم أنها لغة التشريع والتداول نزل في وعائها (حسب تصور يامسلاف) القرآن الكريم .

لقد اعتمد علماء العربية في تحرياتهم جملة من الأدوات العلمية الدقيقة أساسها السماع حيث كانوا ينتقلون في الفياثي بين القبائل يأخذون الأمثال والأشعار والأقوال المختلفة مبتعدين عن أهل المدر الذين اعتزى ألسنتهم الاختلال والفساد بحيث كان يمضى الرجل الأشهر الطوال بين الأصقاع آخذا ما يسمعه بالتدوين والتمحيص يروي ابن دريد في الجمهرة أن أبا عمرو بن العلاء بلغ اليمن (4) أما أبا علي القالي في أماليه فإنه يروي قول الأصمعي بعد أن طال حلّه وترحاله: << إني قد هلعت من الغربة واشتقت أهلي >> ما يدل على طول الرحلة التي قضاها جمعا للغة عن أهلها مما جعله يحسّ بل يعاني من طول المدة فالتحريات لم تحدها مدّة ولا حصر للكلم اللغوي المجموع فمما رواه الزجاجي في مجالس العلماء أنَّ الأصمعي كان أحفظ الناس للغة حيث قال عن نفسه << إني أحفظ اثني عشر ألف أرجوزة فقال له رجل: منها البيت والبيتان فقال: ومنها المئة والمئتان >> ويقول ابن الأعرابي: << شهدت الأصمعي وقد أنشد نحو من مائة بيت ما فيها بيت عرفناه >> .

فالمادة اللغوية المستقاة كانت تحفظ حفظا وتدون تدوينا في قراطيس تنوء لحملها ظهور الرواكب. فهل اتبع علماء العربية عند جمعهم لهذه المدونة أساليب علمية واضحة أم جمعهم لها جمعا عشوائيا لا يخضع إلى تقنين أو تخرج ؟

المعلوم أن علماء العربية قد اتبعوا منذ بداية القرن الثاني للهجرة من الهجرة جملة من الوسائل المنهجية كان تمثل المعالم التي تحدّد وبشكل دقيق منهجية الجمع بالدرجة وسنقتصر في هذه العجالة على بعض منها كتحديدهم لرقعة الفصاحة وشروط المورد والآخذ ثم طرق الأخذ إلى غير ذلك من الأدوات الدقيقة التي نجدها في الدرس اللساني الحديث عندما يتعلق الأمر بكيفيات جمع المدونة وشروط ذات الجمع.

1/ المجال الجغرافي للفصاحة:

إنّ اضطراب الألسن وخبالها وانتفاض عادة الفصاحة مما عاشه علماء العربية في كل من البصرة والكوفة ثم استفحال هذه الظاهرة عند سكان القبائل المتاخمة لبلاد الفرس والروم والحيشة وغيرها في تنقلاتهم وتطوافهم قرر هؤلاء ألا يأخذوا العربية من هذه المناطق فراحوا يبحثون عن أفصح القبائل لسانا وأجودها انتقاء لأسهل الألفاظ نطقا فرتبوا القبائل ترتيبا علميا يعتمد على معايير اجتماعية ترتبط بالاحتكاك بغيرها من الأمم والشعوب وكذا معايير لغوية اجتماعية تعتمد على مفهومي التداخل اللغوي والتشويش تمخض عنها معيار جغرافي حدّدت من خلاله المناطق المأهولة التي يعتد بلغة السكان القاطنين فيها المتنقلين عبر أرجائها ورحابها. أورد السيوطي على لسان الفارابي في كتابه المزهري قوله : << والذين أخذ عنهم اللغة وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم " قيس وقيم وأسد فإن هؤلاء الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم >> ويعلل ذلك الانتقاء ودقة التحديد والاحتراز والتخرج المتولد عنها بقوله: << فإنّه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جدام لمجاورهم أهل مصر والقطب ولا من قضاة وغسان وأياد لمجاورهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانيين ولا من بكر لمجاورهم النبط والفرس ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من اليمن لمخالطتهم للهند والحيشة.... >> إلخ ما نقل عن الفارابي من تحديد دقيق

(4) ابن دريد ، الجمهرة ، ج 2، ص 147.

للمصادر التي اعتمدها اللغويون كأرصدة لغوية يتوفر فيها الشرط الأساسي جمعا لهذا الرصيد المستودع متمثلا في الفصاحة الموافقة للقوانين الضابطة وفقا لأصل الوضع.

وما يستشف أيضا من قول الفارابي في المعيار الدقيق المعتمد لانتقاء هذه المادة وبمفهوم المخالفة لإقصاء كل ما يمكن أن يساوره دُخْلٌ مما يمكن أن يشوب هذه الفصاحة ألا وهو معيار التداخل اللغوي وليد الثنائية أو الازدواجية اللغوية وقد استعمل في ذلك مصطلحين دقيقين هما المجاورة والمخالطة . و يعني مفهوم المجاورة وجود نظامين لغويين مختلفي البناء كالعربية واليونانية أو العربية والحبشية أو العربية والعبرانية مثلا فيتولد عن ذلك ما يعرف بالازدواجية اللغوية التي ستتجلى في استعمالات الناطقين بكلا النظامين في متوجين يفترقان في مستويائهما اللغوية عن النظامين الأصليين.

أما المخالطة فهي تعني الثنائية اللغوية أي انطباع لكلا النظامين في ملكات المستعملين واستعمالاتهم بحيث نجد الواحد منهم يلجأ تارة إلى نظام وتارة أخرى إلى نظام آخر وربما تولد عن ذلك مزج لغوي عبّر عنه العلماء القدامى بمصطلح المولد الذي انتشر بشكل جلي في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي.

2/ المورد :

كان يشكل التحديد الجغرافي لرقعة الفصاحة عنصرا مهما للغويين العرب لكن تحديد شرط العنصر البشري عند أخذ اللغة أو روايتها لم يكن بأهمية أقل منه، فإذا كان اللغويون قد احتاطوا في فصل مناطق يوثق في عدم اختلاطها بالأعاجم عن مناطق أخرى متاخمة فإنهم قد تشددوا في اختيار الأعراب الذين أخذوا عنهم اللغة فإذا ما وصف اللغويون "المورد" بخشونة العيش فمعنى ذلك أنه لازم البادية ولم ينتقل إلى قبيلة أو منطقة متاخمة فبقيت لغته صافية من كل شوب فحافظ على طبعه فصيح اللسان لا يجيد عن الجواب ولا يخطئ في تأليف الكلم والنظم بوجه عام ومن الشروط الواجب توفرها فيه نجد الأمانة فيروي الشعر كما سمعه ويذكر المناسبة التي قيلت فيه ، والصدق في الحديث لا يحذف ولا يضيف شيئا إلى ما حفظه ورسخ في ذاكرته ولا يعوّض مناسبة بأخرى، والعدل في جوابه إذا كان السؤال يتطلب جوابين فأكثر أو إذا بدت الألفاظ متقاربة المعاني متداخلة الدلالات فيجب ألاّ يميل إلى قول دون الآخر تدفعه إليه ذاتيته أو أسباب قبلية لا علاقة لها بالمتطلبات اللغوية كالموضع وسياق الكلام والحال المحيطة بالخطاب، وفي هذا دليل آخر على دقة المعايير التي وضعها المشتغلون باللغة حدوا في ذلك حذو علماء الحديث الذين كانوا يولون اعتبارا كبيرا للسلوك اليومي لراوي الحديث وعلاقاته الطبيعية بغيره.

لم تكن تتوفر هذه الشروط كلها عند جميع سكان البادية فكان الرواة -تطبيقا لهذه المعايير- قليلون جدا يتوجه إليهم المشتغلون باللغة بعد أن محصوا سلوكهم وقدراتهم المعرفية.

فإن قيل: ألاّ تعتبر هذه المعايير قهرا للغة في عفويتها وتدخلها صارخا ربما حجب عن اللغويين الكثير من التنوعات والبنى ؟ نقول إنّ التحرج العلمي- الذي تفرضه العلوم بمختلف تخصصاتها- يفرض على المتخصص أن يكون حذرا فيما يجمعه ويدونه ويحتز كل الاحتراز فيما يلاحظه إن كان يروم بلوغ الحقيقة العلمية- وهي مبتغى أي علم من العلوم إنسانية كانت أم تجريبية أم تقنية- فرما وردت عناصر ذاتية أو خارجية حجب الحقيقة فأنات بمتبعتها عن المبتغى وزاغت به عن الغرض.

3/ آخذ اللغة :

يتعين أن تتوفر في آخذ اللغة قوة الحافظة والسماع المرهف والأمانة التامة فيما يروييه ثم جهيزة بكيفيات الإنتاج اللغوي التي تتميز بها الموردون على اختلاف لهجاتهم والتنوعات التي تسمها ثم ملححة وكياسة في التعامل بحيث يكون بينه وبين المصدر اللغوي عرى ود تطبعها الثقة المتبادلة. ولكل شرط من هذه الشروط أهمية . فقوة حافظة الباحث تعينه على جمع الأشعار والأمثال السائرة أما السمع المرهف فيحتمي آخذ اللغة من الخطأ نتيجة توهم أو تداخل أو تذبذب في الإدراك أما الثقة والصدق والأمانة فهي من دعائم المحقق فهي

ضميره العلمي والأخلاقيات الضابطة أما ربط عرى الود بين الطرفين فإنه يزيل التردّد والخجل بما يجعل المورد يسترسل في الكلام بطبعة توجهه سليقته، ويفسر معاني الوحدات ، ضابطه في ذلك نظام الوضع كما جُبل عليه.

يعتبر أبو عمرو بن العلاء وأبو زيد الأنصاري وأبو عبيدة والأصمعي من رواد جماع اللغة ممن قعدوا وأسسوا لأساسيات التحري اللغوي بمفهومه الحديث قال السيوطي: >> قال أبو الطيب: وكان في العصر ثلاثة هم أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم، عنهم أخذ جلّ ما في أيدي الناس من هذا العلم وهم أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعي وكلّهم أخذوا عن أبي عمرو اللغة والنحو والشعر ورووا عنه القراءة>>.

فجل ما روى عن هؤلاء من النحو أو اللغة أو الشعر كان من عند هؤلاء العلماء الذين اتخذوا في تحرياتهم كافة التدابير التي يملها عليهم حسهم اللغوي وحدهم العلمي لنقل هذا الركام الضخم من الرصيد اللغوي بهذه الأمانة وبكل الدقة المتناهية وهي نفس المعايير ونفس المبادئ المنهجية التي نجدها عند البنيويين الوصفيين والوظيفيين الذين يعتمدون الأمانة والدقة والتحرّج عند نقل الظاهرة اللغوية يصفون جميع تفاصيلها ويسجلون جميع الملاحظات المحيطة بها.

ويزداد الأمر غرابة عندما نجد نفس التقنيات في التحري عند علماء العربية القدامى واللسانيين كاعتماد السماع عند هؤلاء لأنهم درسوا اللغة الشفاهية المنطوقة والمسموعة في مختلف القبائل العربية وتسجيل المحادثات العفوية عند المتكلمين الأصليين كما هو الحال عند البنيويين التوزيعيين حيث سجل تشالز فريز أكثر من 55 ساعة من المكالمات الهاتفية بين متكلمين أمريكيين أصليين ليحصر مدونة لغويا درسها وحدّد مفهوم البناء من خلالها. وكاعتماد كلا الفريقين على الأسئلة المباشرة وغير المباشرة .

أما القياس الذي اعتمده علماء العربية فيعتمد على نفس المبادئ العقلية التي اعتمدها البنيويون الأوروبيون عندما حملوا صيغ على صيغ أخرى تشبهها في الأصول العامة وتختلف عنها في صفات مميزة، بل يمكن أن نذهب أبعد من ذلك حينما نقول أن القياس الذي اعتمده البنيويون الأوروبيون كان وليد المنطق الأرسطي (1) بينما القياس الذي اعتمده علماء اللغة العربية كان وليد الملاحظة اللغوية الصرفة وإنّ المتصفح لكتاب سيبويه مثلاً لا يجد أي تمحّل ولا تكلف في التفسير حيث إنّ الرجل لم يخرج البتة عن المدونة اللغوية التي أخذها عن أستاذه الخليل فيحمل التراكيب والوحدات بعضها على بعض يستنبط الأصول العامة التي كان يعتقد أنّها تضبط النظام يوجهه في ذلك مبدأ الاستقامة اللغوية وسلامة النحو وهو أحد المبادئ التي أسس عليها تشومسكي نظريته المعروفة. وفي هذه النقطة بالذات يستوقفنا سؤال منهجي جوهري، هل نستطيع اعتبار النظرية التوليدية التحويلية أكثر معيارية من نظرية النحو العربي طالما اعتبر صاحبها نفسه معيارياً أم العكس لأنّه كان ينجح دوماً إلى تفسير الآليات وفقاً لمبدأ القياس أو الأصل والفرع أو العامل أو استصحاب حال الأصل أو غير ذلك من الأصول النحوية ؟

وحسبنا في هذا الصدد قول الخليل فيما نقله الزجاجي (2): >> إنّ العرب نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها، واعتلت أنا بما عندي أنه علة بما علّته منه، فإن أكن أحسنت العلة فهو الذي التمس، وإن تكن هناك علة فمثلى في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبه النظم والأقسام... فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنّما فعل هذا هكذا لعلّة كذا وكذا ولسبب كذا وكذا سنحت له وخطرت ببالي محتملة لذلك، فحائر أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار وحائر أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أنّ ذلك مما ذكره الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن يسنح لغير علة لما علّته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلوم فليأت بها>> فحسب الرجل استقامة في القول ودقة وتحرجاً علميين يجعلانه يعتبر دوماً ما يتوصل إليه من النتائج نسبياً للغاية وما العلل إلا أدوات منهجية يتخذها الباحث فهما لما هي الخطاب اللغوي في جزئياته ووكلياته.

(1) الحاج صالح عبد الرحمن ، المدرسة الخليلية والدراسات اللسانية الحالية، الرباط 1987.

(2) الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك .

وقد سار عبد القاهر الجرجاني على خطى الخليل وسيبويه حينما انطلق من مفهوم السلامة والحسن ليصل إلى مفهوم النظم الذي لا يكون إلا كنتيجة منطقية لالتقاء السلامة النحوية بالسلامة اللغوية إذ هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم بل إنه يؤسس النظم بالدرجة الأولى على السلامة النحوية إذ يمكن أن نجد تراكيب تبدو سليمة نحويًا لكنها متناقضة معنويًا كقولنا شربت ماء البحر وهو ما يطلق عليه سيبويه مصطلح المستقيم الكذب (1) أي عدم السلامة اللغوية إذ المنطق السطحي للغة يفرض عدم قدرة المرء على شرب الماء الأجاج فما بالك باحتسائه لماء البحر كلّهُ أو حمّله لجبل، فإن قال ذلك رجل صادق أدركنا أنه لا يكذب بل يبغي مجازًا ههنا يفتح باب البلاغة على مصراعيه لأننا لو أخذنا الصور البلاغية برمتها لوجدناها خروجًا عن المنطق الاجتماعي أو الحقائق الاجتماعية وما هو خروج عن الحقائق هو بالضرورة كذب، وهو النقطة الجوهرية التي تفتن إليها عبد القاهر الجرجاني حينما اعتبر القاعدة الجوهرية تكمن في المعاني النحوية وما حيكَ وفقها يمكن أن يدخل في مجال النظم.

(1) الكتاب، ج 1، ص 26.